(١٤)

وبشهـامة ابـن البلد أخرج الدولارات من جيبه لكى يدفع للضابط الأمريكى ثـمن خاتم الزواج!

خبايـا قصـة الصعود من حى الجمالية العريق إلى قصـر الاتحادية يمكن تلخيصها فى كلمات بسيطة وبليغة: لا تتعجب إنها إرادة الله.. وحيث يريد رب الكون فلا راد أو مانع لمشيئته سبحانه.

فـلا الرجل خطط ولا سـعى ولادبر.. لكنه فى موقع العـارف أدرك حجم المؤامرة التى تحيط بالبلاد من الداخل ومن الخارج.. وكان الأفضل له وهو فى موقعه بعد أن تم تصعيده مـن رئيـس للمخابرات الحربية إلى وزير للدفاع كان من الأفضل له أن يسـكت أو يتحرك من وراء سـتار ويلعب على الحبلين.. لكن أخلاق الفرسـان والوطنية تأبى إلا أن يكشـف المسـتور ويفنده فعل كل هذا دون أن يتجاوز موقعه أو يتخطاه.. وكل ما جرى أنه انحاز للشعب ولكن هى سمات الجيش المصرى دائما وأبدا بمد عصوره كلها.. كانت معركته مع محمد مرسى الذى يتباهى بأنه هو الذى جاء به.. لكن حقيقة الأمر أن المشير طنطاوى هو الذى سبق ورشحه ليحل محله.. ولأن مرسى كان متعجلا للإطاحة بطنطاوى وعنان وكان كل ما يعرفه عن السيسـى أنه رجل "بتاع ربنا" وظن مرسـى بالعقلية المحدودة أن هذا يكفـى جـدا لكى يكون وزير الدفاع أقرب إلى الإخوان ناسـيا المعزول أن التدين عند رجل الجيش لا يمنعه عن وظيفته ولا يتعارض معها بعكس ما يعتقد الإخوان الذين يتعاملون مع الوطن على أنه حفنة من التراب العفن كما قال كبيرهم سيد قطب..

ولأن حكاية السيسـى ومرسى متشـعبة وفيها الكثير من التفاصيل والأسرار.. نعود إلى ما كتبته جريدة "النيوزويك" الأمريكية.. ويقول الجد لحفيده كيف بدأت الحرب العلنية بين رجل المعلومات ورئيس الدولة وجماعته.. وفى شهر مايو ٢٠١٣م اجتمعت كوكبة مع السيسى فى مناسـبة عسكرية وشرح لهم خطورة الموقف.. وبعضهم أخذه الحماس وطالب السيسـى بالتدخـل فـورا.. لكنه بهدوئه المعتـاد قال لهم واثقا: الصبر طيب وكل شـىء سـيتم فى وقته.. وكانت مظاهرات ٣٠ يونيو تدق الأبواب ويقترب موعدها.. وبدأ الحشـد الشـعبى.. وقالت "النيوزويك" إن السيسـى أعطى مرسـى ورجاله الحبل الذى شنقوا به أنفسهم.. حتى خرج إلى النور فى اللحظة المناسبة كما وعد.

وفى مشهد سيبقى محفورا فى الذاكرة المصرية، ظهر قائد القوات المسلحة ووزير الدفاع الفريق أول عبد الفتاح السيسى مساء فى الثلاثين من يونيو - حزيران على شاشة التليفزيون المصـرى معلنـا تأييد الجيش للجماهير المصرية، قائلا إن الجيش لا يمكنه تجاهل الملايين الذين خرجوا للمطالبة بإقالة أول رئيس منتخب ديمقراطيا فى البلاد.

وبعد الإطاحة بمحمد مرسى، تصاعدت شعبية الفريق أول عبد الفتاح السيسى وزير الدفاع والنائب الأول لرئيس الوزراء، وارتفعت مكانته بصورة نادرة مقارنة بمن سبقوه من رجال الجيش فى مصر، إلا جمال عبد الناصر الذى قال مراقبون إن السيسى يسير على خطاه.

ووصفت مجلة "نيوزويك" الأمريكية، فى تقرير مطول حمل عنوان "الجنرال الهادئ.. ماذا يريد لمصر"، عبد الفتاح السيسى بـ"رجل مصر القوى"، معتبرة أن الفهم والإدراك الجيد لشخص السيسى يعد أمرا محوريا لفهم أو التنبؤ بالمسار الذى تتجه إليه مصر.

الأوراق الشخصية

البحث فى الأوراق الشخصية للفريق أول عبد الفتّاح السيسى قاد إلى مكتبة كلية الحرب فى كارليسل الأمريكية، حيث وجد الكتاب السنوى لعام ٢٠٠٦م موضوعا بعيدا عن الأعين. فى هذا الكتاب، وعلى خلاف ما يظهر عليه الفريق أول عبد الفتاح السيسى فى الصور اليوم بملابسه العسكرية الأنيقة التى تزينها النياشين تظهر صورة الضابط الذى من المتوقّع أن يمسك بزمام السلطة فى مصر، يوما ما، مبتسما فى حفل ببلدة صغيرة فى بنسلفانيا وهو يبدو مسترخيا ومرتديا (قميص بولو) أصفر اللون.

وثمة صورة للسيسى أثناء زيارته لأحد ميادين الحرب الأهلية الأمريكية وصورة أخرى لأسرته التقطت فى حفل حضرته بمناسبة عيد القديسين وتظهر فى الصورة زوجته وابنته إلى جانب امرأة ترتدى ملابس كليوباترا.

وتوثّق الصور، التى لا تعود إلى تاريخ بعيد تذكرة لعام أكاديمى قضاه قائد الجيش خلال بعثة زمالة عسكرية فى هذا المكان الهادئ فى الولايات المتحدة.

فى بلدة كارليسل ترك السيسى انطباعا فى المسجد المحلى وفى الكلية نفسها بأنه طالب جاد تعكس كتاباته مدى إدراكه بأن تطبيق الديمقراطية فى منطقة الشرق الأوسط أمر محفوف بالصعوبات.

ويقول زملاء وأساتذة للسيسى فى الكلية الحربية الأمريكية إنه كان أكثر تحفظا من زملائه فى مناقشات الدورة العسكرية ربما لأنه حذر بطبيعته أو خوفا من أن تلاحقه تعليقاته فيما بعد.

ويتحدث من عرفوا السيسى خلال بعثته إلى الولايات المتحدة عن شخص، كان فى ذروة الحرب الأهلية العراقية التى أعقبت الغزو، يشكك بشدة فى الفرضيات الأمريكية المسبقة عن ازدهار الديمقراطية هناك.

رجل متدين

خلال البعثة فى أمريكا عاش السيسى، المنحدر من أسرة متديّنة كأغلب الشعب المصرى كانت تقطن فى منطقة "الجمالية" الشعبية بالقاهرة، فى شارع خلاب يقع فى المركز التاريخى لكارليسل حيث تتدلى الأعلام الأمريكية من الشرفات الأمامية.

يقع البيت الذى كان يسكن فيه السيسى على مسافة قريبة سيرا على الأقدام من مدرسة محلية درس فيها ابنه وعلى بعد مسافة قصيرة بالسيارة من المسجد الذى يرتاده فى العادة الدارسون المسلمون فى كلية الحرب وعائلاتهم. واشتهر السيسى هناك بأنه رجل متدين كان يؤم الصلاة فى بعض الأحيان. وقال عبد الماجد عيود الذى يصلى فى هذا المسجد "كان يصلى معنا. وهو الآن رجل مهم".

لم تكن كارليسل المحطة الأولى التى درس فيها السيسى فى الولايات المتحدة، ففى عام ١٩٨١م تلقى دورة أساسية فى سلاح المشاة فى قاعدة فورت بنينج فى جورجيا. ويقول الضابط الأمريكى المتقاعد فرانك فيليبس الذى كان صديقا للسيسى هناك إن الجنرال المصرى كان يؤم الصلاة للطلبة المسلمين خلال الدورة الدراسية. وقال فيليبس واصفا السيسى "كان متدينا لكنه لم يكن متعصبا" وقال إنه "شديد الوطنية".

ويحكى فيليبس أن السيسى ذهب معه لشراء خاتم زواج فى كولومبوس فى جورجيا. وعندما اتفق فيليبس على أن يعود لاحقا لتسلّم الخاتم – وهو أمر غير معهود فى مصر – عرض السيسى أن يساعده ماليا كى يعود بالخاتم فى نفس اليوم. ورفض فيليبس العرض بلطف لكنه قدر موقف السيسى بشدة. وقال "إنه رجل رصين".

ورفض من عرفوا السيسى خلال إقامته بالولايات المتحدة بشكل عام اتخاذ موقف من الاضطرابات السياسية فى مصر. لكن فيليبس يقول إنه مطمئن إلى أن السيسى سيفعل الأصلح لمصر وإنه سيقدر الآراء الأمريكية نظرا لتجربته فى الولايات المتحدة. وقال "هل هو أكثر ميلا الآن إلى وضع وجهة النظر الأمريكية فى الأمور فى اعتباره؟ أظنه كذلك". وكتب اسم السيسى مع زملائه الآخرين من فصل ٢٠٠٦م على لوحة مطلية باللون البرونزى تغطى جدار روت هول – البناية الرئيسية فى كلية الحرب. لكن التكريم الأعلى فى الكلية لا يزال فى انتظاره. ففى الداخل توجد "صالة الشرف" وفيها صور للمبعوثين الذين – مثل السيسى – قادوا جيوش بلادهم.

والجنرال تيبور بنكو، الذى أصبح رئيســا لأركان القوات المسلحة المجرية، هو أحدث المنضمين إلى قاعة الشرف وقد وضعت صورة أكبر حجما له فى صدر عشرات من العسكريين الآخرين من ألمانيا وإيطاليا ودول أخرى.

غلطة الإخوان

لم تكــن جماعة الإخوان المســلمين تعلم أنها "حفرت قبرها بيدهــا"؛ عندما اختارت الفريق عبد الفتّاح السيســى ليخلف المشــير محمد حسين طنطاوى. ففى خطوة غير متوقعة ووصفت بالثورية، أحال الرئيس المصرى المعزول، محمد مرسى، وزير الدفاع المشير حسين طنطاوى، ورئيس أركان القوات المسلحة سامى عنان، على التقاعد، وقرر تعيين عبد الفتاح السيســى، الذى كان يشغل منصب رئيســا للمخابرات الحربية، وزيرا للدفاع وترقيته من رتبة لواء إلى رتبة فريق أول.

علــى إثر هذا التعيين قال البعض إن السيســى مقرّب من الإخوان، حيث إن مرســى تجاوز جنرالات أعلى منه رتبة عند اختياره.

فــى ٢ مارس ٢٠١٣م توقعت صحيفة «وول ســتريت جورنــال» الأمريكية أن الجيش المصرى ربما يرسى الأساس لعودة مصر إلى الحكم العسكرى.

وفى تقرير بعنوان «مرســى والجنرال»، قال المحلل السياسى دانييل نيسمان مدير قسم مخابرات الشــرق الأوســط وشمال إفريقيا فى مؤسسة «ماكس ســيكيوريتى سولوشن»، إنه فى أغســطس ٢٠١٢م، بدا كأن لواءات الجيش المصرى الذين كانوا فى وقت من الأوقات يتمتعون بنفوذ كاسح، أصبحوا غير مؤثرين.

وأوضح أنه بعد هجوم الميليشــيات التى قتلت عشــرات الجنود فى شبه جزيرة سيناء، استغل الرئيس محمد مرسى المنتخَب حديثا الفرصة لفصل المشير حسين طنطاوى وعدد من اللواءات الآخرين؛ حيث تمكن الرئيس مرسى من السلطة بعد الغضب الشعبى فى أعقاب ١٧ شهرا من الحكم العسكرى غير الكفء لمصر ما بعد الثورة.

غير أنه بعد ٦ أشــهر، عاد جنرالات المجلس الأعلى للقوات المسلحة لتحدى الرئيس مرسى المكروه بشكل متزايد، ربما لوضع الأساس لعودة مصر مجددا تحت الحكم العسكرى؛ على حد قوله.

وأشار إلى أن الفريق عبد الفتاح السيسى، الذى اختاره الرئيس مرسى ليحل محل المشير طنطاوى، كان من المفترض فى الأســاس أن يكون متعاطفا مع القيادة الإســلامية المنتخبة

٥

فى مصر من قبل الشعب؛ ربما يعزى ذلك -حسب تعبيره- إلى معارضته البارزة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة التى تظهر فى كتاباته السابقة، أو الحجاب الإسلامى التقليدى الذى ترتديه زوجته.

واعتبر أن مجرد التلميح بأن أحد المتعاطفين مع الإخوان يمكن أن تتم ترقيته إلى رتبة لواء تحت حكم نظام مبارك، يعد تجاهلا لعقود من تنافس لا هوادة فيه بين الديكتاتور السابق والإسلام السياسى.

أول خطوة

وتابع المحلل الاستخباراتي قائلا: كانت أولى خطوات الفريق السيسى بعد تعيينه القيام بتراجع تكتيكى، وسحب الجيش من الساحة السياسية واستعادة هيبته التى فقدها خلال الفترة الانتقالية المضطربة فى مصر. من هناك، حظى الجنرال السيسى بموقع تحكم أفضل يمكنه من خلاله مراقبة تراجع الإخوان المسلمين العنيدين.

وقال إن الأمر لم يستغرق وقتا طويلا ليبدأ العرض؛ موضحا أنه فى نوفمبر ٢٠١٢م، أغرق الرئيس مرسى البلاد فى دوامة من العنف بعد إصداره مرسوما يهدف لدفع مشروع دستور إسلامى وطرحه للاستفتاء. وخلال تلك الفترة من الاضطرابات التى استمرت شهرا، تجدد الشقاق بالفعل بين جيش الفريق السيسى وجماعة الإخوان.

ولفت إلى أنه وسط الهجمات المستمرة ضد منشآت الإسلاميين فى جميع أنحاء البلاد، غضب الرئيس مرسى وجماعته من رفض الجيش إرسال قوات لحماية مؤسساتهم. وكما أوردت التقارير، ضغطت قيادة الإخوان على الرئيس مرسى لرفض عرض المجلس العسكرى للتوسط فى الحوار مع المعارضة السياسية.

وأشار إلى أنه فى ظل دوامة سقوط الاقتصاد المصرى، أظهرت تقارير فى ديسمبر أن الفريق السيسى ألغى مبادرة الرئيس مرسى للسماح لقطر بشراء أراض فى شبه جزيرة سيناء لبناء منتجعات سياحية، وجرى تفسير ذلك بأن الفريق السيسى لن يتنازل للأجانب عن الأراضى التى مات كثير من أبناء بلده فى سبيلها خلال الحروب السابقة مع إسرائيل.

هذا التحدى العلنى -والحديث لنيسمان- لسلطة مرسى، مع ذلك، سوف يثبت أنه الأول من نوعه بين كثير من التحديات الأخرى الرامية إلى إعادة ضبط التوازن بين الجيش وجماعة الإخوان.

نيسمان لفت إلى أنه بحلول يناير ٢٠١٣م، مع وقوع اضطرابات مدنية كانت أكثر عنفا في القاهرة، أشعل فتيلها الذكرى السنوية لانتفاضة ٢٥ يناير ٢٠١١م. في ذلك الوقت، كانت العلاقات بين الإخوان والجيش تسير من سيئ إلى أسوأ.

وعندما شهدت منطقة قناة السويس اشتباكات دامية بعد صدور أحكام الإعدام ضد العشرات من سكان بورسعيد، وفي ظل فشل وزارة الداخلية في استعادة النظام في أكثر المناطق استراتيجية في البلاد، اضطر الرئيس مرسي المتردد إلى تقديم طلب للجيش لفرض الأحكام العرفية.

وبعكس ما هو متوقع على حد تعبير نيسمان، أعطى هذا الفريق السيسي فرصة مثالية لتأييد سكان مدن قناة السويس ضد الرئيس مرسي؛ حيث وافق السيسي على الانتشار في القناة، ولكنه أمر قواته بحماية المر المائي نفسه بدلا من الرضوخ للرئيس مرسي من خلال تضييق الخناق على الجماهير الغاضبة.

وأعتبر أن المشاهد التي أعقبت ذلك، عندما كان سكان بورسعيد يسيرون في الشوارع، جنبا إلى جنب مع قوات الجيش في تحد لحظر تجول مرسي، حملت مظاهر ثورة يناير ٢٠١١م، عندما استقبل الثوار ميدان التحرير ضباط الجيش بالهتاف؛ وسرعان ما أدت الصور القادمة من بورسعيد إلى همسات بدعم انقلاب عسكري في القاهرة؛ على حد قوله.

في تلك الأثناء وفيما يتعلق بسيناء، تقدم الفريق السيسي لتعزيز موقفه مع واشنطن على حساب الرئيس مرسي، ونفذ الجيش حملة غير مسبوقة ضد التهريب إلى قطاع غزة مع تدمير مئات الأنفاق على حدود رفح بعد إغراقها بالماء. كما حرص الجيش على التأكد من نشر كل العمليات التي ينفذها، في إهانة مباشرة لتعهدات مرسي بدعم نظام حماس الحاكم لقطاع غزة.

وواصل الفريق السيسي النفي صراحة أي نية للاستيلاء على السلطة إلا إذا «طلب من قبل الشعب» لفعل ذلك، وهو مفهوم ضبابي أثار مخاوف من انقلاب داخل قيادة الإخوان. يوم ٢٠ فبراير، ذكرت الصحافة المصرية إن المجلس العسكري قد أجرى اجتماعات خلف الأبواب المغلقة في غياب الرئيس بشأن قضايا متعلقة بالأمن والاستقرار. منذ ذلك الحين، تعج وسائل الإعلام المصري الشائعات حول مخطط محتمل من الرئيس لإقالة الفريق السيسي كما فعل مع المشير طنطاوي.

وأشار إلى أنه فى حين ينفى كلا الجانبين بشدة تلك الشائعات، تعتقد مصادره فى مصر «أن هذه الشائعات تم تداولها من قبل كبار أعضاء جماعة الإخوان لاختبار رد فعل الشعب فى التفكير بمثل هذه الخطوة ضد الفريق السيسى».

وخلص نيسمان إلى أنه لا الرئيس مرسى ولا الفريق السيسى يتطلع إلى أن يكون فى وضع يمكنه من الإطاحة بالآخر. ولكن الانضباط القائم على الخداع الذى يظهره الجنرال ربما يكون كافيا ليصمد فى موقعه بعكس مرسى.

وهذا ما جرى بالفعل.. لكن ما أخطأ فيه "نيسمان" أنه صور المسألة على أنها انقلاب عسكرى.. لكن صدق توقعه جاء من التفاف الشعب حول جيشه وثقته المطلقة فى القائد.. لكن يبدو أن حملات التشكيك لم تكن قادمة من الخارج فقط.. فهناك فى الداخل من القوى السياسية من مارس التشكيك خاصة من جناح البرادعى وأعوانه وأربابه فقد قال: محمد أبو الغار رئيس الحزب المصرى الديمقراطى الاجتماعى "لا أريد عبد الناصر آخر" وتحدث أبو الغار فى مكتب بوسط القاهرة قرب ميدان التحرير عندما احتشد مئات الآلاف من المصريين استجابة لدعوة السيسى لتفويضه من أجل محاربة "العنف والإرهاب" فى إشارة ضمنية لجماعة الإخوان المسلمين.

وأبو الغار (٧٢ عاما) طبيب يخشى مثله مثل بعض الليبراليين الذين أيدوا عزل مرسى أن يصبح السيسى قائدا منتخبا يحظى بشعبية تفوضه بتغيير البلاد كيف يشاء.

وقال "انظروا إلى هتلر.. كان منتخبا بطريقة ديمقراطية. انظروا إلى موسولينى.. كان منتخبا بطريقة ديمقراطية." لكنه يرى أيضا خطرا على الديمقراطية مما وصفه بعنف جماعة الإخوان المسلمين.

فما يحدث فى مصر سيلقى بظلاله على العالم العربى حيث أحيت انتفاضة ٢٥ يناير ٢٠١١م الآمال فى تغيير ديمقراطى فى منطقة يحكمها العسكريون منذ وقت طويل. وكان البعض يخشى أن يكون الأمل فى الحكم المدنى قد ذهب أدراج الرياح. وقد تدفع عودة القمع للإسلاميين إلى العمل السرى مما يؤجج عنفا جديدا يبرر عودة قانون الطوارئ الذى قوض العمل السياسى فى البلاد لعقود.

وهذا ما جرى بالفعل من تفجير وقتل واستهداف لرجال الشرطة والجيش ومنشآت.. فيما تؤكد جماعة الإخوان الإرهابية أنها سلمية ١٠٠٪ والسؤال: هل كان مطلوبا من الدولة أن تقابل كل هذا العنف بالموسيقى والورد!!